فهمي جدعان

تحرير الإسلام
ورسائل زمن التحوّلات

الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

فهمي جدعان ◆ تحرير الإسلام ورسائل زمن التحوّلات

والتحرير قد دارت حول قضايا الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي والاستبداد السياسي. لا شك في أن علال الفاسي قد عالج مسألة الحرية في جانبها المتعلق بالتحرر من الاحتلال الأجنبي والاستقلال، وفي تحرير الوطن من الاستعمار الخارجي. لكن هذا الوجه من المسألة انحسر بشكل واضح من أدبيات الحرية في النصف الثاني من القرن العشرين. والأمر مفهوم. فإن جميع الأقطار العربية قد نالت استقلالها خلال هذه العقود على الرغم من استمرار التبعية هنا وهناك لهذه القوة الكبرى أو تلك من قوى الهيمنة الكونية. ومع ذلك فإن «الحالة الفلسطينية» تقدم لنا حالة فكرية فذة لمفكر قدمت له تجربة النضال الفلسطينية مناسبة فلسفية غير عادية، مكنته من أن يحقق تركيباً أصيلاً بين الحرية بمعناها الأنطولوجي وبين التحرر بمعناه السياسي. وهذا المفكر هو أستاذ الفلسفة بجامعة بير زيت وأحد رموز حركة النضال الفلسطينية في داخل الأراضي المحتلة: سرّي نُسَيْبة.

ما الحرية؟ الحرية هي انعدام القيود أو رفع القيود، أو هي التحرر من القيود[٨٤]. ذلك هو المعنى الذي تؤدّيه لنا دراسة حركات التحرر في التاريخ، وذلك هو المعنى المشترك للحرية في أشكالها كافة: حرية التعبير، الحرية السياسية، الحرية الأكاديمية، الحرية الوطنية، حرية الفكر... ففيها كلها نحن نطالب بفك القيود وإزالتها في كل قطاع من هذه القطاعات بشكل لا يسمح بالاعتداء على حقوق الآخرين. لا شك في أن هذا التعريف للحرية ليس تعريفاً «ذاتياً» لها لأن البعد المجتمعي ظاهر فيه تمام الظهور، فالمصلحة العامة، مصلحة الآخرين وحقوقهم، وكذلك «المصلحة الوطنية» ومصلحة المجتمع، مصونة فيه كل الصون. وحين نقول أيضاً، من وجه آخر، إن «الحرية حق طبيعي»، وإنها «هي القدرة على النمو والتطور نحو الأفضل» فإننا نعني أن الحرية تعني «سلخ القيود المانعة من هذا النمو والتطور نحو الأفضل»[٨٥]، أي إنها «الآلية أو القدرة على السعي لتحقيق الوضع الأفضل». وهذه القدرة تتمّ على صعيد «الذات»، أي على مستوى «الإرادة»، أي على مستوى التفاعل الداخلي في الذات الذي

---

(٨٤) سري نسيبة، **الحرية بين الحد والمطلق** (بيروت؛ لندن: دار الساقي، ١٩٩٥)، ص ٣٣ وما بعدها.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٨٥.

ينشأ عنه قهر السلب بالإيجاب، وذلك التصميم على القيام بفعل ما، أو رفض الانصياع للقيام به. وهذا التفاعل «يتضمن عناصر منها الوعي بالذات، ومنها الوعي بالواقع خارج الذات، وأهمها اصطدام أو تشابك الأول بالثاني، والخروج بهيمنة أو سيادة الذات على الفعل، حتى ينسجم ما يفعل الإنسان مع ما يؤمن به»[٨٦]. ويمثّل سري نسيبة لهذا الفهم بحالة المناضل الفلسطيني الأسير الذي يخضع للاستجواب والتعذيب: «هذا المناضل يؤمن بعدالة قضيته، وانخرط في سلك المقاومة لتحقيق العدالة والحرية لشعبه وصمم على أن يضحي بنفسه من أجل المجموع. . . تضحية عملية نفعية» لا تضحية ميتافيزيقية. «يتم استجواب هذا المناضل في زنزانات التحقيق. ويتعرّض للإرهاق الجسدي والنفسي، ويبدأ المحقق بمحاولة «كسر نفسيته» تارة من خلال الإهانة الجسدية، وتارة من خلال الإهانة النفسية، تارة من خلال التعذيب، وتارة من خلال الترغيب، كما يحاول المحقق كذلك أن يحطم قاعدة إيمان المناضل، مثلاً من خلال إشعاره بوحدانيته المطلقة وكأن من يناضل من أجلهم كافة، أو من يناضل معهم، قد هجروه تماماً. . . وها هي قياداته قد رمت به إلى الهاوية في حين أنها تعيش مرفهة. . . فهل يستمر في بلاهته ويرفض الاعتراف؟ أم هل يستطيع أصلاً ـ وهو ذاك الوحيد ـ أن يتحمل عبء وطنه على ظهره؟ تتفاعل المشاعر والأفكار في داخلية هذا المناضل. وتمر الساعات البطيئة في ظلمة الزنزانات «والتوابيت» والأكياس المنتنة الرائحة، وينفرد الإنسان إلى ذاته، فهل يا ترى تبدأ نفسيته بالتحطم والتهاوي، أم هل أن إيمانه وثقته بنفسه وبمشروعه يساعدانه على التغلّب على خصمه المحقق؟ لو ألقينا نظرة سطحية من بعيد، لقلنا إن المناضل يقع في قبضة الأسر، أو إنه قد فقد حريته، وذلك أمام المحققين الذين يدخلون ويخرجون أحراراً من أسوار السجن. فالمناضل أسير، والمحقّق حر، أو هكذا يبدو، ولكن الحقيقة هي أن المعركة قائمة، وهي معركة مصيرية، فالمحقق يريد أن يتحكم في هذا المصير، والمناضل يستمر في نضاله كي يبقى مسيطراً على مصيره، إننا أمام معركة الإرادات، إرادة المناضل أمام إرادة المحقق. وأقول: ما دام

---

(٨٦) المصدر نفسه، ص ١١٧.

استمر المناضل مسيطراً على ذاته ومصيره، وما دام استمر سيداً على نفسه وأفعاله، وما دام استمر صاحب أو سيد القرار في ما يفعله ولم يسمح للذات الأخرى أن يتغلغل في نفسه، فإنه يبقى حراً، ويكون المحقق هو المقيد، إذ يكون مقيداً بصلابة إرادة المناضل أمامه». تتجسد الحرية هنا بوعي الهوية، إنها حرية داخلية تتمثل في قدرة الذات على التحكم في القرار، أي على التغلب على القيود الداخلية، قيود الخوف والرهبة والضعف والجهل، قيود العادة والحاجات الجسدية أو النفسية، وذلك يعني الوعي بالذات وبالواقع الخارجي، وبضرورة تغليب الذات على القرار والتوصل إلى هذا الوعي الذي يعدّ تحرراً وتأسيساً للهوية الشخصية لشعب بأكمله على قواعد الوعي والإرادة والحرية والسيادة، أي تأسيساً لهوية جماعية لشعب هو الشعب الفلسطيني انصقلت وتبلورت بالإرادة الجماعية، الصادرة عن ذوات أشخاصه والساعية الفاعلة من أجل تحقيق الحرية لأفراد هذا الشعب ولمجموعه، والعمل بمبادئ المساواة والعدالة والتضامن والتكافل[٨٧]. في هذه الحالة الفذة تتعانق الحرية بما هي وعي ذاتي باطني عميق بما هو جهد إرادي وقرار إرادي صارم لقهر سلطة أو إرادة خارجية مقيدة، والتحرير بما هو غاية عملية مشخصة تطلب تحقيق الهوية والاستقلال للشخص الإنساني الفرد ولشعب بأكمله.

٧ ـ حقوق الحرية

منذ أن اكتسبت «الحرية» حق المواطنة في جملة القيم الحديثة التي تمّ دمجها في المركب الثقافي العربي الحديث كان واضحاً أنّ المقصود ليس هو الأخذ بمفهوم مجرد مطلق للحرية وإنما إقرار مفهوم ذي وجوه وأشكال عملية، فكرية وسياسية واجتماعية ودينية واقتصادية. صحيح أن هذه الوجوه اعتبرت «أشكالاً» للحرية، لكنها في حقيقة الأمر كانت أيضاً «حقوقاً» للإنسان الحر.

فالحرية لم تعن فقط حرية الفعل والتصرف وارتفاع القيود في حدود أحكام القانون أو الشريعة، وإنما عنت أيضاً أن حق المواطن الحر أن يتمتع

---

(٨٧) المصدر نفسه، ص ١٨٨ ـ ١٢٧.